

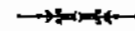


دراسات في الفن

الزعامة فن

على ذكرى الزعيم سعد

للأستاذ عزيز أحمد فهمي



ما دام الفن هو التعبير عن الإحساس ، وما دامت الزعامة هي التعبير عن إحساس الجمهور ، فالزعامة إذن فن ، بل إنها فن عريض .

فكيف كانت الزعامة تعبيراً عن إحساس الجمهور ؟

إذا نظرنا إلى المجتمعات البدائية رأينا هذه المجتمعات تحس الخوف من الطبيعة ؛ فهي تستعد للحرب في كل لحظة ، وهي إما أن تمد لهذه الحرب سلاحاً ، وإما أن تعتمد فيها على القوة البدنية وحدها . ولكنها على أي حال من الحالين تأخذ أمهتها للمادية لتقاوم بها أحداث الحياة . فإذا نظرنا إلى الزعماء في هذه البيئات رأيناهم أشد الناس تنبيراً عن هذا الإحساس المركب الذي يبدأ بالخوف وينتهي بيقظة القوة البدنية . فهم أشد الذين في هذه المجتمعات حذراً على أنفسهم وعلى مجتمعاتهم ، وهم أشد هم انتباهاً للخطر إذا ادلمهم ، وهم أشد مقاومة لهذا الخطر ، وهم أشد قدرة على قهره ، وهم إلى هذا أشد الذين في هذه المجتمعات استكمالاً لميزاتها الملحوظة فيها حتى لا يكون الزعيم منهم عرضة لهجوم عاص من شعبة قادر على وخزه في إحدى نواحيه الضعيفة فيه بينما يكره الواحد من جمهوره أن تكون ضعيفة فيه . فإذا كان من مميزات جمهور أحدهم السرعة في الجري إلى جانب ما يهتم به الجمهور من تنمية القوة البدنية وجب على الزعيم أن يكون سريع

الجري إلى جانب الذي امتاز به على الجمهور من قوته البدنية ، وإذا كان من مميزات جمهور أحدهم الخفة في تسلق الأشجار ، وجب على الزعيم أن يكون خفيفاً في تسلق الأشجار إلى جانب الذي امتاز به على الجمهور من قوته البدنية . وهكذا .

فإذا تركنا البيئات البدائية رأينا نظرنا هذه تصدق في كل الحالات : في البيئات الزراعية ، وفي البيئات الصناعية ، وفي البيئات الاجتماعية المختلفة ، وبقدر ما تتسع هذه البيئات وتضيق تتسع الزعامة فيها وتضيق . فهناك زعامة للجنس البشري كله هي زعامة الأنبياء والرسل الذين فاضوا بالهدى على الخلق جميعاً ، وهؤلاء زعامة تخلق بمد ذهابهم عن هذه الحياة الدنيا ، وفي هذا تمويض للحصر الذي تلقاه زعامة في حياتهم . وهناك زعامة لجنس من الأجناس البشرية كزعامة موسى الذي يريد هتار أن يرد عليها اليوم زعامة الآرية . وقد تدوم هذه الزعامة بدوام الجنس إذا ظل الجنس متشبهاً بأناية الطفولة وغرورها . وهناك زعامة لجماعة من جنس بشري يسكنون أرضاً ما ، وهي الزعامة الوطنية كزعامة سعد زغلول ، وهي تدوم ما دامت دواعيها وما ذكرها الداكرون بعد زوال هذه الدواعي ، وكثيراً ما تزول هذه الدواعي ، لأن مشكلات الوطن كثيرة التقلب

ونحن إذا حسبنا عدد المرات التي استدعت فيها طبيعة التطور والارتقاء الروحيين وجود رسالات إنسانية عامة وجدناه أقل من عدد المرات التي استدعت فيها هذه الطبيعة وجود رسالات خاصة بحيث نستطيع أن نتصور التطور والارتقاء جاريين في موجات صغيرة ، وهذه تجري في موجات كبيرة . وكأن الموجات الصغيرة هي موجات التطور ، وكأن الموجات الكبيرة هي موجات الارتقاء ...

وهذا شيء لا يستغرب ؛ فنحن إذا تسلسلنا إلى نهاية التخصص

فكيف يستطيع الإنسان في هذا العصر إذن أن يحكم على الزعيم بأنه زعيم حقاً ، أو أنه قد استطاع أن يحكم نفسه زعيماً لأنه زعيم ، ولكن في نوع من أنواع التفكير ، وقد كان المجتمع في حاجة إلى زعيم في الإحساس والتعبير عن هذا الإحساس ، وما يصحب هذا التعبير من جهاد ؟

نستطيع أن نصل إلى هذا الحكم العادل إذا نحن راجعنا إحساس المجتمع ، وراجعنا ما يجب أن يكون التعبير به عن هذا الإحساس ، وراجعنا إلى جانب هذا إحساس الزعيم وتعبيره عنه وطابقنا هذا على ذلك ... فإذا انطبقت وكان الزعيم بمد ذلك سائراً بشبهه إلى ما يؤمله فهو زعيم ، وإلا فهو ذلك المفكر الذي ذكرناه وهذا هو ما يسمى في الفن بالطابع . فأشد الفنانين تمكناً من الفن عند جمهور من الجماهير هو أشد الفنانين تمكناً من طابع هذا الجمهور الذي يطلبه ويميزه من غيره من الجماهير

وقد اتفقنا في أحاديث سابقة على أن الفنون تسمى بالبشرية متجمعة أو متجزئة في طريق التطور والارتقاء ، والزعامة كذلك مدامت فناً ، وأشرفها إذن ما كان أكثرها تقريباً للمستقبل من الحاضر

ومن الزعامة ما تكون لحالة طارئة ، تزول بزوال هذا الحادث أو تدمر - إذا دامت - حتى يسحب ذبوله . وقد يحدث أن يترع جمهور من الجماهير إلى أن يتناسى زعيماً من زعمائه في حياته بينما هو لم ينحرف عن جادته فيستغرب الزعيم هذا ويستغربه معه آخرون ، ولا يكون لهذا من سبب إلا أن زعامة الزعيم كانت طارئة استبدتها حادث طارئ . ومثال هندي زعامة هندنبرج التي أبقاها عليه هتلر في السنوات الأخيرة من حياته بينما كان الشعب يريد أن يحل زعامة هتلر محلها لأنه رأى نفسه يحس شيئاً جديداً زيادة على النزعة الحربية التي كانت تعبر عنها زعامة هندنبرج ، ولأنه رأى هتلر يبرع عن هذا الإحساس . ولم يقل أحد إن هندنبرج كان قد فقد شيئاً من مميزاته الشخصية إلى آخر يوم من أيام صحته ، وإنما الذي حدث هو أن الحادث الذي تزعّم له هندنبرج ألمانيا لم يصبر حتى تنتهي حياة هندنبرج ليسحب بملها ذبوله ... وذلك

في البيئات الاجتماعية الإنسانية حتى نذهب إلى مجتمعات الصبيان في الحوارى والفضول ، وإلى مجتمعات الشبان في النوادي والحقول ، وإلى مجتمعات النساء في الشوارع والبيوت ، وإلى مجتمعات الرجال في الأكوخ وفي القصور ، وجدنا لكل جماعة من هذه الجماعات زعيماً ، فإذا أحصينا عدد هؤلاء الزعماء استطعنا أن نؤلف منهم في كل وطن ألف برلمان تؤيد الزعيم

وعلى هذا كانت أعلى الزعامات هي أندرها ، ولا بد أن تكون أشدها تطابقاً على نظم الطبيعة ، لأن نظم الطبيعة هي العامة وهي الثابتة ، ومراعاة تطورها وارتقائها يجب أن تلحظ في هذا التطابق . وهذه الزعامة لم تتحقق على أشمل الوجوه إلا في حالة واحدة هي زعامة النبي الرسول محمد (ص)

وإذا استسغنا بعد هذا القول بأن الزعامة فن تخلفه الطبيعة في نفس الزعيم كما تخلف الألحان والأنغام في نفس الموسيقى ، وكما تخلف المعاني والأخيلة في نفس الشاعر ، فإننا لن نستبعد أن تكون قد تعرضت للصناعة مثلما تعرض لها غيرها من الفنون . وقد تجمل الصناعة الزعيم إذا كان رائدها التحسين والتجديد . وقد تلتف الصناعة الزعامة إذا حادت بها عن اتجاهها الطبيعي إلى اتجاه آخر كالرغبة في الجاه ، أو الرغبة في المنفعة ، وهذا هو ما يحدث للفنون جميعاً من موسيقى وشعر وتمثيل ورقص وتصوير وغير ذلك

ولما كان أغلب المجتمعات البشرية اليوم قد تعلم القراءة والكتابة ، ولما كان من المحتم أن يكون الزعيم في كل مجتمع من هذه المجتمعات قارئاً كاتباً ، فإن الزعماء في هذه الأيام يقرأون ويكتبون : الزعماء السياسيون ، والزعماء الفنيون - أي الذين يمارسون الفنون الجميلة - والزعماء الماديون ، والزعماء جميعاً . وهم يقرأون فيما يقرأون تواريخ الزعماء السابقين ، وبهذه القراءة يستطيع الزعيم الضعيف في ناحية من النواحي أن يقويها ، أو أن يفتليها أو أن يدعيها . . . وما دام باب الادعاء قد فتح مع غيره من أبواب التصنع ، فقد أصبح من اليسور في هذه الأيام أن يدعي الزعامة في أي ناحية من نواحي الحياة مدع ليس بزعيم .

هذا إذا كان الزعيم فناناً من هواة الحق ولم يكن مهرجاً .
أما إذا لم يكن من أصحاب الحق فهو كأذى فرد من أفراد الجمهور
الأعمى يحب الشفقة ويحب الطنطنة

والزعيم الفنان « يتكون » كما تقدم في أول هذا الحديث
بطريقة طبيعية هي طريقة الانتخاب ، ولكنه ليس انتخاب
الأسوات ، وإنما هو انتخاب الضمائر ، بحيث لو نزع من مكانه
وأحل محله غيره لظهر هذا الجديد وفيه النقص والشذوذ والتكلف
وتستطيع المجتمعات أن تساعد الطبيعة في تكوين الزعماء ،
كما أنها تستطيع أن تعرقل هذا التكوين ، وهي تساعد على تكوينه
بأن تزود من الإحساس الداعي إلى التعبير عنه أو الذي تريد أن
تعبّر عنه ، ويكثر المحاولة في التعبير عنه ، وهي تساعد على عرقلته
بإهمال هذا الإحساس ، وإهمال التعبير عنه

والأصل أن يحدث هذا بدافع من الطبيعة وحدها . ولكن
إذا امتدت حاجة الشعب إلى الزعيم القائد واتبه عقله إلى هذا ،
فإنه يستطيع أن ينتج زعيماً باصطناع هذه الطريقة التي رسمتها
الطبيعة لإنتاج الزعيم ما دام بين أفرادها من يصلح بطبعه لأن
يكون زعيماً . ولعل هذا هو الذي تحاول مصر الآن ، فلا ريب
أن فيها حركة يقوم بها بعض الأفراد يريدون من ورائها أن يقيظ
الجمهور المصري فيعرف حسه للحياة ، فيرجع بعد ذلك أن يعبر
الجمهور عن إحساسه بلسان زعيم لا تزال تنتظره منذ مات
سمد زغلول

ولا ريب أن الزعيم المصري المنتظر يختلف اختلافاً كبيراً
عن سمد زغلول ، فقد كانت حال المصريين التي استدعت زعامة
سمد حالاً لا تملك إلا أن تهتف أو أن تثور متخبطة في ثورتها ،
ثم أن تهدأ بعد ذلك حتى تستجمع قوتها لتهتف وتثور من جديد .
وقد كانت زعامة سمد تصرر هذه الحال في خطبه الرأفة ، وفي بياناته
الطنانة ، وفي نكاته اللاذعة القاسية التي كان يلقي بها تلطم ما يعترض
زعامته أو ما يقاوم أنجاهها الذي تقود فيه جمهورها .

أما الزعيم المنتظر فهو الذي سيكون إحساسه أشد من إحساس
المصريين بالحال الذي نحن فيه ، الذي سيكون أشد المصريين
تعبيراً عن هذا الإحساس ، وأشد مقاومة لدواعي الشر

الحادث هو الحرب الماضية وآخر ذيلها الذي سحبه عن ألمانيا
هو الرضى الذي ختمت به السنوات الطويلة أمام شروط الصلح
وما كان فيها من روح التشنج والانتقام . وهناك زعاسات ماتت
في حياة أصحابها ولم تجد من يحفظها عليهم

ومن الزعامة ما يكون قريباً يلحقه جمهوره بسهولة فلا يعود
يحفل به إلا كما يحفل المرء بهدف قريب وأصابه . وقد يتق الزعيم
من هؤلاء الزعماء كما يتق الزعيم من السابقين زعماء الطوارئ
شر هذا الركود الذي يصيب زعامته لزوال الطارئ أو لضعف
الزعامة ، وهو يتق هذا الركود باختلاق الحوادث في الحالة الأولى
وبفلسفة الزعامة وتعقيدها في الحالة الثانية حتى يظن الجمهور أن
وراء قبة الزعيم شيخاً فيتابعه ويظل يتابعه وهو لا يدري إلى أين
يسير به زعيمه . ولعل التل للصلح للزعيم الذي ينطبق عليه هذان
الوصفان مما هو نابليون ، فقد ظل يأكل عقول الفرنسيين
ويسحرم حتى نفي ونفيت معه فرنسا من مجتمع الدول ذوات
الحول والرأى النافذ ، وقد يكون موسوليني من بين الزعماء
الأحياء الذين يشبهون نابليون في هذا

وإذا كنا نحن اليوم وعلى البعد نستطيع بفكر نخرج وبغير
تهيب أن نقرر هذه الحقائق وأن نصف هؤلاء الزعماء بهذه
الأوصاف فإن أحداً ممن كانوا في متناول أيديهم لم يكن ليجرؤ
على شيء من هذا ، لا خشية من هؤلاء الزعماء أنفسهم ، فالأرجح
أن فيهم من الحكمة ما يوسع صدورهم للنقد الحق على الأقل ،
بل خوفاً من جماهير هؤلاء الزعماء . فإلهم يكرهون أشد
الكراهية أن ينقد زعمائهم بالباطل أو بالحق ، لأنهم في العادة
يقيمون من هؤلاء الزعماء أوئاماً تمثل أعز أمانيتهم في الحياة ،
وهم لهذا لا يحبون أن يחדش أحد زعماءهم ما دام هذا الخدش
بصيب أمانيتهم العزيرة الثالية في أجسادها . وهذا واضح اليوم
في الترك الذين يتعصبون لمصطفى كمال تعصباً أعمى لا روية فيه ،
كما أنه واضح في شعبي هتلر وموسوليني ، وكما أنه واضح في جماهير
المجبيين بالفنانين المشهورين ، فقد يقبل الفنان النقد يوجه إليه
من نافذ صادق ، بينما جمهور هذا الفنان لا يحب أن يلغف إلى
عيب فيه

حول الفن المنحط

للأستاذ كامل التليسانى

— — —

قرأنا بالعدد ٣١٩ من الرسالة الفراء كلمة بعنوان « حول الفن المنحط - كلمة أخيرة » ردأ على ما كان قد كتبه أديب فاضل عن جماعة « الفن والحرية » ، وما كان من نقاشه مع الأديب أنور كامل عضو الجماعة في رده عليه من ناحية توخى فيها أنور كامل البعد عن التفاصيل الفنية وذكر الأسماء والتواريخ . أما وقد ذكر الأستاذ الفاضل في كلمته هذه اسم الأديب الشاعر أندريه بريتون André Breton وترجم كلمة قديمة له عن السير ياليزم Surrealism ثم تكلم بعد ذلك معقبا بكلام من عنده : فلماذا فقط أجد نفسى مضطرا لتصحيح ما أورده من الأخطاء في حق هذا الكاتب وحركته . ولكيلا أتيح الفرصة للقراء الأفاضل بأن يروا صورة مشوهة مسموخة لهذه الحركة العالمية التي تعبر عن أسمى وأنبيل الشاعر الإنسانية في القرن الحاضر ، والتي وصلت عن طريقها الحضارة الفنية سواء في الشعر أو التصوير الحديث إلى الدرجة العليا واضعة بذلك قاعدة المدرسة المعاصرة في الشعر الحر والتصوير البنى على الفكر الشاعرى والتحليل النفسانى الحديث . ولعل الزملاء من المعارضين قد يتحرون الدقة بعد ذلك في إيراد ما يريدون من مصادره الأخيرة الموثوق بها بشأن هذه الحركة التجديدية التي ما زالت تتسع وتتجدد حتى اليوم ولا يقف أمام نشاطها ركود الفكر أو تخول البحث والتنقيب .

والظاهر أن الأديب الفاضل قد اكتسب معلوماته عن السير ياليزم « الفن البعيد عن الحقيقة الظاهرة » كما يتضح من كتابته عن طريق تلك الفقرات التي أتت إجمالا في كتاب : « Bohemian, Literary & Social Life in Paris » ونحن نعتقد أن مجرد قراءة فقرات كهذه كتبت منذ عدة سنوات لا تخول له الحق في التحدث بمثل ما تحدث به ، وأن في هذا جنابة على الفكر والكاتب الذى تحدث عنه ، و « للرسالة » بما لها من

فيه ، وأشد هم لها بالأسواق الخيرية فيه .

والحال الذى نحن فيه الآن ينلب عليه الجهل والجوع والضعف والخيرة ، فزعم المستقبل لذن هو الذى سينقذنا من هذا كله ، والذى سيعيد إلينا مصرينا ناصعة معتزة بكل مفاخر الفراعنة والعرب والإسلام ، وهو الذى تحاول الأزمات المتعاقبة على الوطن في هذه الحقبة من الزمن أن تتمخض عنه .

— وإننا نرجو الله أن توفق مصر في زعيمها الجديد كما وفقت في زعيمها الراحل . فالحق أنه لم يكن من الممكن أن يكون لمصر زعيم أفضل في صفاته الشعبية من سعد زغلول في ظروف زعامته . وقد أثمرت هذه الزعامة ثمرتها الطبيعية وهى هذه الحال التي نحن فيها الآن ، والتي زاد فيها إحساسنا بالحياة ، وزادت فيها قوة تسيرنا عن هذا الإحساس ، وزادت فيها محاولتنا إلى بلوغ أمانينا ... فمن هو الزعيم الذى سينبث منا ؟ ... لا ندرى

ومتى ينبث ؟ ... لا ندرى أيضا ... فقد يتدرج الزعيم في الظهور إذا لم تتخرج الحياة فيظهر فجأة

ومهما قيل إننا ارتقينا على يدى سعد ، فإننا لا نزال على مقربة من عهده ، فالزعيم الجديد ستكون فيه من سعد صفات هي تديد ما لا يزال مضطرا في نفس الشعب المصرى من الإحساس منذ أيام سعد ، وهى صدى هذا الإحساس المضمهر وترجمته . فلا بد أن يكون الزعيم المقبل خطيبا إذا جاء قريبا لأن الخطابة هى التي يجمع بها الزعيم أشقات الأحاديث والأمانى التي يرددها الجمهور فيما بين أفرادها ، وإن شئنا لم يصل من الرق إلى حيث يمكن أن يظهر فيه زعيم صامت أو قليل الكلام

— فإذا كان هناك زعيم في الخفاء اليوم ولم يكن خطيبا لأنه أرق من مستوى الشعب ، فإنه يستطيع أن يتدرب على الخطابة فإن لها صنعة ، وصنعتها تجوز على الجماهير

وعند ما يهون أمر الخطابة فلا تكون من عماد الزعامة في الشعب المصرى فإنه سيكون قد بلغ من الرق مبلغا يقف به إلى جانب الإنجليز الذين يقودهم المجربون والنافعون .

عزيزة أحمد فهمى